ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:08، العدد: 02(2023) ص: 58 - 67

مطارحات كلوديا كافي في تصورها لتداولية التداولية

Claudia caffi's critical discussions in her conception of the metapragmatics

بولرباح لطرش *

جامعة زيان عاشور بالجلفة (الجزائر)

b_latrach@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/06/11
تاريخ القبول:
2023/10/02

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **الميتاتداولية**
- ✓ **التداولية**
- ✓ **الميتانظرية**
- ✓ **الميتاتواصل**
- ✓ **الفعل الكلامي**
- ✓ **الانعكاسية**

الملخص:

ما كادت خاصية الانعكاسية في اللغة تستثمر من قبل رومان ياكبسون -ومن ثمّ في كل الأنظمة السيمائية-، بما بات يعرف اصطلاحا بالميتالسانية، حتى صار تثوير هذه الخاصية في غيرها من المفهومات محل شرعنة وجيهة؛ ليُسكّ لها -على نحو ميسور- مصطلح أخاذ صنعته قرينة "ميتا" في تبيئة هذا المفهوم أو ذاك. ويكون للميتاتداولية بوصفها تداولية التداولية مجال اعتمالها المميز. وتكون كلوديا كافي من السباقين لاستجلاء الحيز الدلالي لهذا المفهوم. الأمر الذي يدعونا إلى تتبع تفصيلات ما اختبرته، والتساؤل عن مدى نجاعة استنباته في ثقافتنا اللسانية والسيميائية.

ولاسيما أن ما خلصت إليه كلوديا كافي من معاني الميتاتداولية، هو حاجتنا لهذا المفهوم ليس فقط في فهم تعقد الممارسات التواصلية- وعيا بالذات وبالآخرين- بل وأيضا من أجل الحديث عن تغيير العالم والذات على متن الخطاب وبه.

Article info

Received
11/06/2023
Accepted
02/10/2023

Keywords:
- ✓ *Metapragmatics*
- ✓ *Pragmatics*
- ✓ *Metatheory*
- ✓ *Metacommunication*
- ✓ *Speech acts*
- ✓ *Reflection*

Abstract :

Since Roman Jakobson worked on the property of reflexivity in the language, which has been termed meta-language. It was then used in all semiotic systems. There was a need to derive concepts that tend to be in the same direction of accountability and legitimization, and it was easy to call the terms of it using the Greek prefix and preposition meta.

Metapragmatics appears to be one of the most important of these concepts that attracted the attention of researchers such as Claudia caffi, who edited a chapter explaining this concept in the concise encyclopedia of pragmatics supervised by Jacob Mey.

This article aims to present what Claudia wrote, especially since what Claudia caffi concluded from the meanings of metapragmatics, is our need for this concept not only in understanding communicative practices - awareness of self and others - but also in order to talk about changing the world through discourse.

* بولرباح لطرش

1. مقدمة

اخترت أن يكون العنوان وصفا للظاهرة أكثر من تسميتها بمصطلحها الذي يسمها في التقاليد اللسانية والسيميائية، لتيسير حصول انطباع أولي لدى المتلقي بمجال هذا المفهوم، والاستيفاز لتحصيل تفصيلات تشرح حيزه الدلالي؛ وإلا فما تداولية التداولية إلا الميتاتداولية.

ولئن كانت الميتاتداولية -مفهوما ومصطلحا -قد بُيّئت في الثقافة اللسانية الغربية منذ أكثر من عقد، حتى أُفرد لها مدخلا معجميا في الموسوعات المتخصصة. فإننا لا نكاد نسمع بهذا المصطلح في دراساتنا المتخصصة – توظيفا أو مساءلة – فضلا عن استعماله في الكتابة غير المتخصصة. بالرغم من أن قسيمه السابق عليه والمشتقة منه – أي التداولية- لنا ألفة به في ثقافتنا العربية اللسانية منذ أن ترجمه طه عبد الرحمن العام 1970(طه عبد الرحمن، 2000.ص:28).

واستجابة لدواعي تبيئة هذا المفهوم، احتيج إلى مدخل معجمي رسين يُتكأ عليه للتعريف بهذا المصطلح، وعرض مدلولاته التي تعتمل فيه. فكان الاهتداء إلى ما كتبته**كلوديا كافي** في موسوعة التداولية المختصرة بذات العنوان(Caffi, Metapragmatics, 2009.pp625-630.). وهي المادة التي تشكل معين هذا المقال برمّته.

2.هل الميتاتداولية ميتالسانية؟

من البداية تجيب كافي عن هذا السؤال الذي يعنّ ابتداء للذي يواجه هذا المصطلح لأول مرة إجابة حاسمة؛ وهو أن الميتاتداولية ليست مجرد مستوى من المستويات الميتالسانية، بل على العكس، تختلف عنها، إذ لا تحيل على المعرفة المتعلقة "بالقدرة على القول" بل "بالقدرة على الفعل" (وقدرة الفرد على قول ما أنجز).ذلك أن المستوى الميتاتداولي يمثل حلقة وصل بين ما هو لساني وما هو خارج لساني(extralinguistic). إذ تمكّن الميتاتداولية مستعمل اللغة من ربط اللغة بالعالم، من خلال فحص مدى كفاية الأقوال لسياقاتها الفعلية، لأنها المعرفة التي تترك آثارا باقية على سطح الخطاب(Caffi.p625).

3.أنواع الميتاتداوليات الثلاث

تعتقد كافي أن هناك على الأقل ثلاثة معان محتملة، للميتاتداولية. وترجع اختلاف معانيها وما يتعلق بها من اختلاف في موضوع الدراسة، إلى تسويغ ابستيمي مرتبط بالقرينة "ميتا" في اليونانية الكلاسيكية: فهي لا تعني " ما فوق" وحسب، بل كذلك " ما بعد"، علاوة على معان أُخر(بين بين،بعد، لاحقا أو من الجانب الآخر،وغيرها)الأمر الذي يسمح بصياغة مصطلحات كثيرة.

وترى أن المصطلح المشهور بهذه القرينة أي "الميتافيزيقا" قام على سوء فهم: إذ لم يتجاوز به أرسطو ولم يسوغه في مؤلفاته التي عنونها بالميتافيزيقا كتاباته في الفيزيقا، بل ببساطة لأنها عفوية الترتيب، لحقت "جاء بعد" بالفيزيقا. أما المفارقة والإرداف الخلفي الكامن(هناك من يرى بأن هذا المصطلح ليس إلا الطباق في البلاغة العربية القديمة) (oxymoron) في الميتاتداولية، فمردّه أن الذي "يجيء بعد" هو الذي "يجيء قبل" عند التفكير في أية نظرية.

أما هذه المعاني الثلاث فهي:

الأول وهو الأكثر فعالية وإنتاجا، يحيل على تلك النقاشات النظرية حول التداولية واهتماماتها المركزية، ووظائفها الابستمولوجية،والتعريفات الملائمة لموضوعها ومجالها. *فالميتاتداولية* بهذا المعنى منشغلة بالمعايير

التي تجعل منها تخصصا ملائما،وليست معنية بالحال التي تجعل منها" أفضل" تداولية، بل هي معنية بالتحقق من اتساق أصول افتراضاتها،وبالأسئلة التي يجب طرحها،وبالمناهج التي يجب تبنيها.

والمعنى الثاني ضيق، يركز على الشروط التي تجعل استعمال اللغة من قبل المتكلم ممكنا وناجعا. فمهمة *الميتاتداولية*بهذا المعنى تتمثل - قبل كل شيء - في الإبانة عن تلك الشروط.وهذا النوع من *الميتاتداولية* يمكن أن يتعلق بالمشكلات الكونية في التواصل البشري. الأمر الذي يجعلها متعالية بالمعنى الكانطي، ما دامت تتعامل مع العناصر الجوهرية في المعرفة الانسانية.

أما المعنى الثالث الذي يعدّ أقل طموحا من السابقين. فيهتم بالكشف عن تلك المظاهر من ملكة المتكلم التي تعكس الأحكام المتعلقة بما يليق بالسلوك التواصلي للفرد أو بغيره. وبهذا المعنى تعالج *الميتاتداولية* تلك الخبرة المتعلقة بالضبط والتخطيط،وكذا التغذية الراجعة، للتفاعل المستمر.

بيد أن مقتضى التبسيط غير المخل يلجئنا إلى قلب الترتيب الذي اعتمدته كافي، فيكون البدء بما انتهت به، لسهولة تملّيه في ممارساتنا اليومية، وتجلّيه في تدبير خطاباتنا المعتادة، ثم الانتهاء بما كان أولا لتعلقه بمُشغلات أهل التخصص.

1.3الميتاتداولية بوصفها تدبيرا للخطاب

1.1.3 المعرفة المشتركة والانعكاسية

يترتب تدبير الخطاب على خاصيتين مميزتين هما الإحالة على المعرفة المشتركة والانعكاسية. ولا يقصد من الأولى إلا المعنى الابستيمي لا الإيديولوجي، كما لا يقصد من الثانية إلا قدرة الفكر الإنساني على التفكير في (والحديث عن)تفكيره الخاص، محققا سمة التعالي/التجاوز. وعليهما يقوم الميتاتواصل الذي يمكن تعريفه بوصفه تواصلا بشأن (مظاهر منتقاة من) التواصل.

ولمّا كانت الانعكاسية من أهم الخصائص المميزة للغة الطبيعية، إذ تُجلّيها عن بقية الأنظمة السيميائية بقدرتها على وصف ذاتها. فإنها من وجهة نظر لسانية وعلى نحو دقيق،يمكنها أن توجد في قدرة المتكلمين على توصيل تواصلهم المنخرطين فيه، بتحديده وتأكيده أو تعديل التعريفات المعطاة لتواصلهم من قبلهم أو من قبل شركائهم. فالتصويبات المستمرة مع الذات أو إصلاحات الآخر المرافقة، هي متأصلة في انعكاسية *الميتاتداولية*؛ كذلك إعادة التشكيلات، والتقييمات،والتعليقات الميتاخطابية،وطلبات التفسير من خلال التفاوض حول الإفهام المشترك.ذلك أنه يوجد في النصوص والخطاب أقوالاميتاتواصلية تلعب دور الضامن في تدبير الحوار من ناحية الفعالية التواصلية، علاوة على أقسام من الواسمات، مثل دليل التسييق (contextualization cues) لدى غامبيرز التي يعرّفها على النحو التالي:"تلميح تسييقي هو كل خاصية شكل لغوي يساهم في الإشارة إلى مفترضات سياقية. مثلا يمكن لتلميحات أن تمتلك عددا من تحقُّقات لغوية تتعلق بذخيرة المشارك اللغوية المعطاة تاريخيا. فالسنن،واللهجة وإجراءات النقل الأسلوبي،وبعض [...]الظواهر التطريزية [...] إضافة إلى الانتقاء من بين الخيارات المعجمية والتركيبية،والتعابير الصيغية [مقولبة لهجيا]،والاستراتيجيات [...]التحادثية، يمكن أن تمتلك جميعها وظائف تسييقية متماثلة(Gumperz J J (1982). p131)).

فيندرج في هذا النوع من الميتاتداولية كل وصف تتابع كلام -عند معالجته- أو إعطائه اسما،وكذا الحكم عليه من حيث صلاحيته للمقام أو عدم صلاحيته. وللمرء أن يفهم ما إذا اختار - بين ما يصلح من الخيارات التواصلية –الأمر الذي يعتبر أفضل ما يلاءم السياق؛ فإذا لم تكن الحالة كذلك، للمرء أن يراجع مراحله ويصححها. كما للمرء أن يتبنى استراتيجية تواصلية شاملة، فيفاوض على درجة الصراحة،والوضوح، أو

التأدب بوصفه ملجأ له. وله أن يقرر إذا ما كان قد قال الشيء الصائب في الوقت المناسب بالطريقة اللائقة، أو أنه جاء بكلام لا لباقة فيه. وإذا كان القول يحوي الكثير من الالتواء، أو الإغماض، أو السخرية، أو الاستطراد في علاقة بموضوع المحادثة (فيقتضي الأمر مراحل مغامرة استنتاجية)،وللمرء أن يسأل من أجل التفسير وإعادة تعريف السياق ومفترضاته المسبقة،وعليه أن يعدّل مهام الحقوق والواجبات بين الشركاء.

أما المعرفة المشتركة فتشكّل الوجه الآخر من مقياس الوعي *الميتاتداولي* التي من بينها النكات والحماقات (gaffes). هذا الوعي *الميتاتداولي* المتشارَك ليس لسانيا وحسب، بل أيضا سيميائيا،وموسوعيا،ومتناصا تأسيسيا. الأمر الذي يحيل على المعرفة المتعلقة لا باللغة بوصفها سلوكا اجتماعيا (محددة ثقافيا وتاريخيا) بل أيضا بوجودنا في العالم.

إن مشكلة الملاءمة *الميتاتداولية* قريبة من مشكلة الأسلوب، إنها تكمن فيما يمتاز به التبادل التواصلي من العلاقة الجدلية بين التوقع والمفاجأة. ذلك أنه فيما يتعلق بنظام توقعات معطى، يوجد ما سيمثل اختيارات ملحوظة قلتْ أو كثرتْ. ويكون للاختيار الأهمية الكبربعندما يكون أقل توقعا (أنظر Arndt and Janny 1987:هذهإحالة المؤلفة)فالأكثر تملصا من المراسم والروتين، هو الأكثر تواصلا. بهذا المعنى يكون النص الأدبي أغنى إخباريا بصفة عدم الحشو التي يتسم بها (انظرLotman 1977:هذه إحالة المؤلفة).أما حينما ينخرط المرء في الروتين، ويختار سجله التواصلي،فإن الاختيار الأكثر لفتا ودهشة هو غير المتوقع، والمتغير فجائيا من الناحية اللغوية، والتنغيمية، ومن ناحية تغير سجلا لحيز التواصلي.

2.1.3المراقبة

تحت هذا العنوان تدرج كافي المراقبة على أنها جزء مهم من *الميتاتداولية* بوصفها تدبير الخطاب،بما تتضمنه من تعريفات المقام الممنوحة من قبل المتفاعلين الذي نتجمعهم سمة التعاون. يسمي الأنثرومنهجيون هذه التعريفات "حواش" موضحين بأنها ليست استثناء، بل هي قاعدة في التفاعل الشفوي العفوي. ويتضمن تدبير التفاعل تحكما في الخطاب الذي يحيل على شروط النجاعة وقابلية التأويل المذكورة في الميتاتداولية بالمعنى الثاني.

ويمكن أن توجد هذه الرقابة في مستوى أعلى، مثال ذلك حقوق الأدوار التحادثية،ونوع التتابع وتطور الأدوار الموضوعي، أو على المستوى الأدنى، في تركيز الكلام الظاهر على الكلام وعلى تنظيمه الأدنى (مثل أقوال من قبيل " ما أعنيه هو ..." أو في نص مكتوب، عنوان الفقرة).لا يكتفي القول بتأدية نوع العمل الذي يتعلق به، بل ويصفه أيضا، فمغامرة وصف " ما الذي يحصل" (والتي يرجع أمر تصديقها إلى السامع) تلعب دورا رقابيا. تبدأ التداولية بوصفها تحليلا طقوسيا للأقوال الإنجازية التي تفعل ما يقولون وتقول ما يفعلون. وهذه هي المفارقة *الميتاتداولية*، ففي الكلام اليومي، إذا أردت أن أفعل شيئا لا يجب على أن أقول إنني سأفعله. على سبيل المثال، لكي "أصرح" لا يجب علي أن أقول " أصرح بـ " فإذا فعلت، فهذا يعني أنني أفعل شيئا آخر. فلكي أنجز عملا، يجب أن أتجنب تسميته. على أنه في الخطاب، يمكن أن يكون هناك فصل مؤقت بين الفعل ووصفه. وهو الأمر الذي يحدث في الأفعال الميتاتواصلية التي تصف تتابعا كلاميا من وجهة نظر متضمنة في القول[إنجازية] (مثل " هذا وعد،أمر، تقرير بسيط،وهلم جرا). لأن هذا النوع من الوصف يمثل وسيلة مهمة لتوجيه إجراء التفاعل، ويمكن للأفعال الميتاتواصلية أن تحيل على ما يمكن اعتباره " كلاما ضابطا speech control": إذ تقدم عنونة للأعمال السالفة (بعائدية قبلية anaphorically) أو اللاحقة لها (بعائدية بعدية

cataphorically)، وتركز على الحضور المتزامن في خطية الخطاب (تتابع سابق س يمكنأن يصنف على أنه ص) وعلى العمق - المترتب على كون- (المتكلم يمثل المشارك والرقيب على نفسه(ها) وعلى التفاعل). ذلك أن للخطاب تنظيمين، تتابعي وتراتبي، حسب مقاربة فوكو(Caffi.p629).

وتجدر الإشارة إلى أن الكفاءة الميتاإنجازية[الميتامتضمنة في القول] هي في الغالب أيضا ميتانصية واتساقية(مثل: لقد كان سؤالا)ولكن ليس العكس.

تعدّالميتاتداولية من وجهة نظر مصطلحية (ومن دون الاقتصار عليها)، اسما شاملاhyperonym في علاقة تجمع " الميتانص" (بما يحتويه من الآليات التي تخول للمرء الاسترشاد بها في النص، مثل الإشاريات النصية(textual deixis- "الميتاإنجازية/الميتامتضمنة في القول (بما تحتويه من الآليات التي تجعل الفعل الإنجازي/ الفعل المتضمن في القول ظاهرا مثل الأفعال الميتاتواصلية). وعليه، إذا كان المقصود بالميتاتواصل شيئا أكثر تحديدا وأكثر دقة مما حددها بها (Watzlawick et al.1967: هذه إحالة المؤلفة) على سبيل المثال،وأخذها المرء بوصفها نمطا تواصليا كليا يراد له النجاح (مثل: كنت أمزح فقط)،فإنهاإذن داخلة في نطاق الميتاتداولية.

2.3 الميتاتداولية:بوصفها ميتاتواصل(Caffi.p629)

ترى كافي أن النمط الثاني من البحث الذي يمكن أن يميز الدراسات *الميتاتداولية* هو البحث في إمكانية التواصل وشروط نجاعته. فإذا كان البحث في مجالات أخرى، مثل لسانيات النص،قد تمت فيها محاولة تعريف القواعد التأسيسية - التي تجعل النص نصا، أي ماهيته /الشيء الجوهري فيه، بدلا مما يشكل خواصه الكيفية،أو هويته التي ينسجم معها – فإن الاهتمام منصب في التداولية - في الغالب- على القواعد المنتظمة أو المبادئ: كيف يتم التعاون،وبما يتم التلطف، والتأدب؟وهلم جرا. بهذا المعنى التنظيمي، يبدو أن البلاغة القديمة بما اشتملت عليه من استراتيجيات القول والتأثيربه، حازت السبق والحظوة على التداولية. ولعل من بين ما فرطت فيه البلاغة، هو تجاهلها لمستوى الفعل في اللغة، الذي عرّفه أوستين بكونهمستوى الفعل المتضمن في القول، والذي يمكن جعله ممثلا للوحدة الأساسية في التحليل في كل من التخصصين: تحليل المحادثة، واللسانيات التداولية.

تقتضي المعيارية– كما هو ملحوظ – أن يكون المعياري واضحا. بالرغم من هذا، تظل بعض الأسئلة مفتوحة، من قبيل: علام يتأسس الفعل؟ علام يتأسس التفاعل؟ ما الواجب – وليس المختار- إدراكه في عمل بعض الأنواع حتى تنجز؟ ما الوحدات التي يتأسس عليها العمل في تفاعل معطى؟ في مثل هذا النمط من *الميتاتداولية*، وعلى سبيل المثال في البحث عن كليات الحوار التأسيسية، وباستعمال عنونة هابرماس (1971)، فإن الميتافيزيقا يتهددها - على الخصوص - ما هو حاصل فعلا أي الواقعي.والخطر ذاته يرصد في التعريف المفترض لأفعال كلام كونية، ولاسيما إذا حُولت إلى صيغ نحوية(الفعل المتضمن في القول للتقريرات، والاستفهامات، والأوامر، بوصفها انعكاسا غير إشكالي لصيغ الإثبات والاستفهام والأمر (انظر أفعال الكلام والنحو).

تتعلق مشكلة تحديد الأفعال الأساسية – سواء أكانت كونية أم لا،وسواء أارتبطت بها أشكالا نحوية أم لا - بمشكلة المواضعات المتضمنة في تأدية الفعل.في هذا المنعطف، ترتبط المشكلة بمشكلة إجماع: ما الإجماع الذي يسمح لنا بتحديد التابع التفاعلي س بوصفه ع؟وهل توجد تداولية مشتركة متقاطعة ثقافيا تسمح بمقارنة السلوك التواصلي،وإن كان كذلك، فعلام تشتمل؟

هنا، تنفتح منطقة بحث من دون خلاف على الإطلاق. تتمثل في معرفة *ميتاتداولية* مشتركة تتعلق بمعرفة مقيدة بالثقافة وبأطر الفعل الجماعي.وفي أن أعضاء جماعة معطاة في مرحلة من تاريخها، يكونون قادرين على إنتاج وإدراك أنماط العمل اللساني،وفي تحويل – مستقبليا أو بأثر رجعي - قول عمل "واردtoken" إلى قول عمل "نمطيtype" من خلال وصف س بأنها ع. وراء هذه الإمكانية من التأدية وإدراك العمل اللساني، يمكن أن يحصي المرء عدة شروط منها:

أ- **شروط "قابلية التفكير"** أي الشروط المضمنة في إمكانية التفكير في أنماط الأعمال. هذه الشروط تكون مسجلة في المعجم،فعلى سبيل المثال: أفعال الأسماء الكلامية، أو قوة الفعل المتضمنة في القول التي تشير إلى شعارات (diveces)؛ التي تتعامل مع " ما الشيء ". ولعل المحاولة الأشهر لتحديد القواعد التأسيسية لأفعال الكلام، ما قام به سيرل (انظر أفعال الكلام 1969). مثل هذه المحاولات يمكن أن تكون مرتبطة بالبحث في الذكاء الاصطناعي وعلم النفس المعرفي،وبالأخص في عمل الأطر وفي كيفية انطباع القوالب الكلية في ذاكرة المتكلم. أما أكبر صعوبة نلتقيها في هذا النوع من التحقيقات، فتجئ من حقيقة أنه لا يوجد طريق واحدة لأداء العمل؛ولا توجد علاقة وحيدة بين كل شكل لغوي ونمط عمل يخصه، باختصار لا توجد مطابقة بين أنماط الجمل وبين أنماط منطوقاتها.

ب- **شروط النجاعة** أي تلك الشروط المتعلقة بنظام الأهداف والتوقعات التي تشكل جزءامن تأدية العمل؛ والتي تهتم بطريقة الفعل وإنتاجه. هذا الصنف من المعرفة يتعلق بالاستراتيجيات المدركة تذاوتيا (intersubjectively) من حيث وجودها وتوظيفها بجعل مختلف أنماط العمل تتماشى مع مختلف السياقات الفعلية.وتعدّ قواعد غرايس مثالا لها، إذ يمكن أن تتعلق بعلم السلوك (praxeology)، نظرا لأنها تهتم بسيرورة العمل الفعلي.وعلاوة على ذلك، البحث – ومن ضمنه العمل على التأدب بوصفه واقعا في التقاطع الثقافي – يؤكد أن قواعد غرايس محكومة بالصفة العرقية؛ لذا يجب أن يعاد النظر في دور التداولية الكونية، أو ربما إزاحتها.

ت- **شروط قابلية الإدراك**: تهتم هذه الشروط بأسئلة من قبيل: ما الذي جعلك تفعل هذا؟ ما الذي جعلك تقول هذا؟ وهكذا، مع قابلية التأويل. يكون هذا السؤال متعلقا بدراسة ما تتوافر عليه مختلف اللغات من أنواع الوسائل والواسمات اللغوية واللغويةالمصاحبة(paralinguistics) (معجمية، وكذا صرف-تركيبية، ونصية، ونغمية/تطريزية، وإيمائية- الفاسي الفهري2009.ص 237.). فطبيعتها التواضعية غير المعطاة مسبقا ولا بشكل نهائي، بل متغيرة عبر الزمان والمكان، جعلها تحدد بوضوح مدى التأويلات المعقولة المحتملة، من قبل المؤولين وشركائهم في السلوك التواصلي، في إجراء تلقُّفي [يتلقف الواحد من الآخر]،بالتجربة والخطأ، من خلال ما تضطلع به الدلالة في عملية التفاوض. وجلي أنه كلما كانت المعرفة المشتركة بين المتفاعلين أكثر،وهم يعلمون ذلك، في أغلب الأحيان،كانوا يقومون بإهمال الخطوات الوسيطة في حواراتهم، الأمر الذي ينتج لديهم قابلية فهم على نحو متبادل، لكنها غير متاحة للمراقب الخارجي.

من وجهة نظر منطقية، رتبت أنواع الشروط الثلاثة وفق تراتبية تنازلية، في حين أن الترتيب مقلوب من وجهة نظر منهجية،أما من وجهة نظر عملية أي من وجهة نظر ما يحصل في الواقع في التواصل الإنساني، تحدث الشروط الثلاثة مجتمعة، لأن الفاعلين الاجتماعيين لا يعولون على الأنواع الثلاثة من تلك الشروط إلاوهي

مجتمعة،ولا يؤدون الفعل إلا بها معا. والمشكلة الرئيسية تكمن في ربط الأنواع الثلاثة من الشروط بالممارسة التذاوتية التواضعية الحاصلة يوميا في التفاعل حيث البني المعرفية والسوسيونفسية تقيد التفاعل.

أما المشكلات المتأتية من قواعد سيرل التكوينية، وقواعد عدم النجاعة بوصفها نماذج مصغرة (micro-models) للعمل اللساني والسلوك التواصلي،فقد قام كريكل (Kreckel 1981:هذه إحالة المؤلفة) بتسليط الضوء عليها.

1.2.3 المقاربة "المفهومية التجريبية "

طبق مصطلح "*الميتاتداولية*" على الأبحاث المعجمية المقارنة،ولاسيما تلك التي ركزت على الأفعال المحددة للأعمال اللغوية، أي الأفعال الواصفة للأفعال الكلامية. مثل هذه المقاربة، تعرّف بوصفها "مفهومية تجريبية" إذ تبدأ من افتراض أن كشف البنية المعجمية،والدلالية في الأفعال المستعملة لوصف أفعال الكلام، لتصل إلى تسليط الضوء على طبيعة العمل اللغوي (Verschueren 1985:هذه إحالة المؤلفة). مثل هذه البحوث تحظى بأفضلية جلب أغلب الأفكار المجردة المتعلقة بنظرية الفعل الكلام الكلاسيكية إلى أقرب الطرق التي يتم بها وصف العمل اللساني في اللغات الفردية.

الآن، من البديهي أن يشكل المعجم وسيطا بين التداولية والنحو،وأن تمثل دراسة المعجم ملاذا تجريبيا مهما، ويبقى صحيحا أن مجرد البحث المعجمي هو بالأصل غير مناسب لتحليل التفاعل الدينامي. بل المؤكد ضروريا، أنه إذا لم يعد التفاعل الواقعي غير ملائم لتعالق الكشف التصنيفي للأفعال التي يستعملها الناس لوصف العمل اللغوي بكشف ما يظهر أن الناس يعرفونه " في الزمن الواقعي" بشكل مباشر عن استعمال لغتهم في السياق. فدراسة أنماط الموضوعات اللغوية (بما فيها الموضوعات المعجمية) يجب أن ترتبط بدراسة أنماط خواصها السياقية المضمرة والمعايير المناسبة.

كما أنه من المهم بمكان أن يوضح مستوى التجريد فيما يشتغل عليه المرء، حتى لا تكون تداولية الميتالغة في الوقت ذاته التعريف والمعرف: فتذويت مفهمة اللساني بوصفه متكلما أصليا للغة مخصوصة لا يجب أن يحدد سلفا اختياره (ها) للخواص الملائمة للفعل الكلامي في علاقة بما هو معنى مركزي مشترك.

يحق لهذا النوع من البحث *الميتاتداولي* أن يفترض منهجيا صلة بين صنافة الفعل الكلامي وصنافة تشعبية.ومعلوم جدا أن اللغات بوصفها أدوات مفهمة قوية، تقطّع الواقع الخارجي والظواهر الطبيعية بطرق مختلفة،على النحو الذي يتم مع ألوان الطيف – كالمثال الذي كثر اقتباسه لصالح وضد ما يسمى بفرضية سابير– وورف.وبخلاف الألوان، فإنه لا يوجد في الطبيعة ما يسمى بالأعمال اللغوية؛ فهي لا تأتي قبل الاستعمال اللغوي، ولا منفصلة عنه. وبغض النظر عن قوة الوسائل التي يمكننا تفعيلها، هناك رأي نظري خارجي متميز من خلاله ينظر إلى أن العمل اللغوي لا وجود له.

3.3 الميتاتداولية بوصفها ميتانظرية التداولية

كان التعامل في النوعين السابقين مع الحالات التي يكون فيها المتكلمون يتوفرون على معطيات /مادية، تصير بعد ذلك لدى اللسانيين إجراءات، تصقل أو تستثمر جيدا مثلما هو الحال مع الميتاتواصل.

أما ما يلفت الانتباه في هذا النوع من الميتاتداولية فهو نشاط أولئك اللسانيين الخاص بهم،بإخضاعه للدراسة [أي انعكاس الدراسة عليه]. فيصير هذا الجانب من التفكير هو تجلية لمكونات حوار نظري محترف (ولا سيما في الوسط المكتوب) حول التداولية.

فبحسب كافي، قطعت التداولية شوطا كبيرا. ابتداء من سلة المهملات – حسب استعارة بار هيليل 1971 – وصولا إلى تخصص يحظى بشرعية تمخضت عن الجمعيات الدولية، والمؤتمرات المتزايدة،والمصنفات الدراسية، والدوريات الشهرية. فلم تعد التداولية حكرا على مذهب أو توجه ما.وفي مقابل هذا التنوع والانفتاح، يجمع المقترحات النظرية عدم التجانس الذي يجعلها مدعوة أكثر إلى توضيح منطلقاتها النظرية واستراتيجيات هاالحجاجية. بالرغم من ذلك، هناك اتفاق حول ضرورة تحديد الحقل الملائم والمنطلق الإيديولوجي والالتزامات النظرية التي يقتضيها هذا التحديد. ولبلوغ هذا الهدف، لزم وجود وعي ميتانظري.

إلى غاية الآن،مورست هذه الأفكار أساسا على قضايا الحدود (التخصصية والأكاديمية) ولا سيما تلك المتنازع عليها بين تقاطعات التداولية مع علم الدلالة واللسانيات الاجتماعية. لن تحوز الأفكار الميتانظرية شرعية الاستقلال الذاتي إلا بعد أن تحدد أهدافها، الأمر الذي يناسب المرحلة الأولى من التطور. وبشكل واضح، كل اختيار متعلق بموضوع دراسة التداولية ومجالها، وبالنتيجة فإن اختيار المقولات والمناهج التي تعدّ الأكثر نجاعة وكشفا، يستلزم مقتضيات تتعلق بالنظرة *الميتاتداولية*، وعلى كل حال، لا ذلك المقتضى ولا تلك النظرة هما مما يصرح به مبدئيا أو علنا. فأحيانا يحصل -على نحو غير متوقع - ما يشبه التيه.

ومع ذلك، فبمقدار الاهتمام بالاستلزامات الإبستيمية التي يفترضها الباحثون في التداولية، بوصفها أمرا شرعيا وضروريا، بمقدار ما يتعدى الكشف التداولي حدود اللسانيات لتتداخل مع السيميائيات. ليصير موضوعها هو التواصل الانساني،وليست اللغة، ولاالكلام، ولا النحو(وواضح أن الأمر برمته يتطلب تحديدات ميتانظرية). أما ذواتها، فليسوا المتكلمين، بل فعل الناس (بمختلف أنماط) اختيارات تفاعلهم؛وهو الأمر الذي يتطلب – من أجل دراسته – إطارا مفهوميا متكاملا.

ولتطبيع هذا التوجه،ترى كافي بأنه لا يوجد أي تسويغ نبرر به الكلام على ميتاتداولية؛بل الأجدر أن يسأل الواحد منا لماذا عادة لا يُتكلم عن ميتا فونولوجيا، أو ميتاتركيب، أو ميتادلاليات،وهكذا.محتجة بأن فيتغنشتاين (1953) كان قد ألقى الضوء على ما أسماه بالمغالطة التركيبية (constitutional fallacy) في كل ميتاخطاب والذي يتطلب أن يكون تأسيسيا،ولكنه ليس إلا واحدا من بين العديد من ألعاب لغوية كثيرة. بالرغم من ذلك، تشتمل الألعاب على أسئلة المرء نفسه: من أين تأتي اللعبة التي يمارسها؟وإلامتؤدي؟وأي قواعدها تمتلك معنى؟ أو إذا لزم تغيير الألعاب، أيها تستحق أن تلعب؟ فإبيستيمية التفكير الميتاتداولي ليس بالضرورة متعاليا(transcendental)(Caffi , p 626).

4. آفاق الميتاتداولية

تبشر كافي بطاقة علاجية تمتلكها *الميتاتداولية*، مثل ما للفلسفة والأنثروبولوجيا. حينما ينظر المتكلم أو الجماعة الاجتماعية نقديا إلى ذواتهم، على كلا المستويين النظري واليومي،الأمر الذي يجعلهم يقومون بتصحيحات أو أحكام أو تعليقات موضحة على خطاباتهم، فتنكسر المطابقة الخطيرة بين الذات ووجهة النظر، وتنفتح الطريق أمام شرعية آراء الأخرين. فـ" الميتا" تحدد الفضاء المسموح به لمنظور الآخر. علاوة على ذلك، يمكّن الوعي

الميتاتداولي المتكلم من ألا يلتزم بالأدوار والرتابات السوسيوتواصلية المُمأسسة الراسخة على النحو الذي يتم فيه استيعابها بالكامل.

تختص *الميتاتداولية* بالتحكم في شروط واستراتيجيات الحجاج،وتساعد نفسها بسهولة على أن تصير أداة نقدية ذات أهمية أساسية في التنقيب وتسليط الضوء على الافتراضات الضمنية بالإضافة إلى مختلف أنواع القول المضمر. ومن الجلي أنها تساعد -على سبيل المثال- على اكتساب اللغة الأولى،وعلى تعلّم اللغة الثانية،وفي طرق المقارنة عبر-الثقافية التي من خلالها تتمثل وتعي الجماعة اللغوية والاجتماعية ذاتها، وفي تحليل ومناقشةالخطاب السلطوي والموجهالمفتوح مهما قل أو كثر.

كما يمكن أن تكون الملكة *الميتاتداولية* مدمرة،مثلما هو الأمر في الحالة التي يتمكن فيها السامع من التحقق من أن الشروط التمهيدية لملائمة الفعل الكلامي قد أنجزت (مثال ذلك: تخيل مريضا يقول لطبيبه(ها): لماذا تفعل هذا). فالمعرفة *الميتاتداولية* خطوة حاسمة نحو إيكولوجيا التواصل [علم بيئة التواصل].

5. خاتمة

تلخص كافي إلى إن معاني *الميتاتداولية* المحتملة والمذكورة ليست متعارضة، بل بالعكس، إذ يمكن أن تكون متعالقة،ويكمّل بعضها البعض. على سبيل المثال، إذا اختار امرؤ أن يؤثر المعنى الأول من الميتاتداولية على المعنيين الثالث أو الثاني، فالأمر يعدّ خيارا نظريا. وقد يزعم آخر أن الطريق الوحيدة غير المتعالية /المتجاوزة لشرعية *الميتاتداولية* هي (ما يلاءم المعنى الثالث)التي تسجل وتحلل ممارسات تواصلية مخصوصة في سياق محدد اجتماعيا وتاريخيا. أما عدم الاكتراث بلغات الأفراد فهو شرط رئيس في لا- ميتافيزيقية *الميتاتداولية*. وهناك شرط آخر لعدم الاكتراث بتلك الطرق التي يعبر بها الناس عن معرفتهم، من خلال التغذية الراجعة مثلا أو التعديلات،أو الأمور التي يفعلونها تواصليا،وعليها يبنون التأويل الذي يتشكل نتيجة جهد استدلالي متداخل من ناحية كل المشاركين المنخرطين. فكل تفسير نظامي لهذه المعرفة هو مشروع بينتخصصي صعب، لا يمكن أن يكون مجرد تذويت(لدى البعض (الاستبطان). introspection) بالرغم من أن التداولية شهدت صعوبات،فإن هناك خطر استبدال ميتافيزيقا التذويت بمعطيات ميتافيزيقية تجريبية، في عملية مفرطة من تجزيء الجهد البحثي ونتائجه التي لم تترك حيزا لأي تعميم معتبر.

وتعتقد بأنه لم يبق في الإمكان إلا خيار نظري -في الحاضر- شديد التنوع والحيوية، يتمثل في حالة النقاش التي لا يمكن إلا أن تكون خيارا جزئيا، مؤلفا من نفي وجود أي تفريق بين معرفة *ميتاتداولية* علمية ومعرفة *ميتاتداولية* متعلقة بمستعملي اللغة، وعوضا عن ذلك تفترض أن هناك استمرارية في المسافة بينهما تقل أو تكبر، أي: في استعمال اللغة. يمكن إبقاء الافتراض الرئيسي الملائم لمعنى *الميتاتداولية* الثالث بوصفه تفكيرا ميتانظريا،في مجال التداولية، مادام أن فيها درجات متفاوتة من الوضوح، لكن لا اختلاف في طبيعة كل من النظرية المبتذلة والنظرية العلمية.

من دون أن ننسى أن المفارقة *الميتاتداولية* تتبدى في أن التحكم التقليدي الميتانظري النازل -من التصور إلى التفاصيل- لا يكون صالحا إلا إذا كان مخفيا.وقد تمت استعاضة التقعر المتعالي حتما بتحليلات جزئية تنصب على مكونات الممارسات التواصلية التي ينخرط فيها المرء بالطرق التي فيها وعي بالذات وبالآخرين يقعان خارجا، ليس فقط من أجل الحديث عن العالم، بل لتغييره، وتغيير نفسه من خلال الخطاب.

وتختم كافي بصوغ البرنامج الميتاتداولي(أو بيانه العام) بجملة:"لا أعلم بما يكفي لأعلم" بوصفها (ميتا-)تداولية تنضاف إلى الشعار "أعلم بأنني لا أعلم"، الذي قاله سقراط (لو لم يجبره الطغاة على تجرع سمّ الشكران).

قائمة المراجع

- طه، عبدالرحمن. (2000). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي. 2000.
- الفاسي الفهري، عبد القادر. (2009). معجم المصطلحات اللسانية. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- *Caffi,Claudia. (2009)« Metapragmatics» inConcise encyclopedia of pragmatics. Ed.jacob l. mey, Elsevier Ltd, Oxford. pp625-630.*
- *Gumperz J J (1982). Discourse strategies. Cambridge:Cambridge University Press.*